الأخلاق بين الفلسفة والدين

أ.د. جمال الجارالله

ماهي الفلسفة؟

الفلسفة لفظة هي إختصار لكلمتين يونانيتين هما: فيلو (Philo) وتعني حب، وسوفيا (Sophia) وتعني الحكمة. فالفلسفة في أصلها اللغوي هي محبة الحكمة.

أما المعنى الإصطلاحي للفلسفة، فقد اختلف تعريفها بين الفلاسفة وتكاثرت بحيث يصعب حصرها[1]، ولتقريب الصورة نقول إن من معاني الفلسفة "وجهة النظر أوالرؤية الفكرية الشاملة للحياة والإنسان والعالم من حولنا"

أو "هي تلك العملية التساؤلية التي نحاور فيها أنفسنا ونتحاور فيها مع الآخرين والعالم" (زكريا إبراهيم).

وهناك ثلاث مباحث تبحث فيها الفلسفة وهي:

1- مبحث الوجود (انطولوجيا) ontology
2- مبحث المعرفة (ابستمولوحجيا) Epistemology
3- مبحث القيم (اكسيولوجيا) Axiology

ويهمنا هنا المبحث الثالث، وهو مبحث القيم حيث يتعرض للمثل العليا والقيم المطلقة وهي: الحق والخير والجمال من حيث ذاتها.[2]

ما معنى الدين؟

الدين لغة هو ما يدان به، ودان له أي أطاعه[3]. ويُطلق في اللغة على عدة معانْ منها الطريقة والحكم والملك، كما يحمل معنى الذل والخضوع. ويمكن تعرفه إصطلاحاً:" جملة المباديء التي تدين بها أمة من الأمم إعتقاداً أو عملاً[4].

---

[1] محمد عبد الله الشرقاوي، مدخل نقدي إلى الفلسفة ص 91
[2] مصطفى عبده، فلسفة الأخلاق/ مكتبة مدبولي 1999م
[3] محمد عبد الله دراز. الدين، بحوث ممهدة لتأريخ الأديان ص 31
[4] محمد بعد الله دراز. الدين، بحوث ممهدة لتأريخ الأديان ص 33

وقد عرَّفه بعض الإسلاميين بما ملخصه:

"وضع إلهي يُرشد إلى الحق في الإعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات"[5]. وكذلك عُرف بأنه " الشرع الإلهي المتلقى عن طريق الوحي."[6] وينطبق الأخير على الأديان السماوية.

وعرَّفه بعض الغربيين بأنه:

"هو الرباط الذي يصل بالله" أو

"الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية"[7].

فعلى هذا يكون مفهوم الدين إما طريق مرسوم للإنسان لكي يسلكه ويأتمر بأوامر شرعه وينتهي عن نواهيه أو مبادئ يلتزم بها ويسير على نهجها. و مهما يكن من أمر فإن الدين عقيدة يحملها الإنسان بين جنباته لا مجرد مشاعر نفسية فقط,

ومن هنا فإن شعور الإنسان تجاه الواجب الديني سيكون مغروزاً في ذاته، ومسيطراً على فكره. ومعلوم أن هناك نوعان من الأديان وهي:

أ) الأديان السماوية: وهي التي نزل بها وحي من عند الله تعالى، والمعروف منها في الوقت الحاضر اليهودية، النصرانية والإسلام.
ب) الأديان الوضعية: وهي التي لم ينزل بها وحي سماوي معلوم ومتيقن: كالهندوسية والبوذية وغيرهما.

الفلسفة والأخلاق:

تبحث الفلسفة فيما يتعلق بالأخلاق عن ماهية الخير والشر، وعن الأساس النظري للواجبات والعلاقة بين الإلتزام بالأخلاق والسعادة وغيرها كما أنها تبحث في الحسن والقبيح والصفات والسلوكات المقبولة وغير المقبولة وما "يجب" وما "لا يجب".

ولهذا سميت بفلسفة الأخلاق او الفلسفة الخُلُقية

وينحو كثير من الباحثين إلى أن علم الأخلاق قد نشأ في حضن الفلسفة، كما يصور بعضهم أن علم الأخلاق لم يكن موجوداً قبل وجود الفلسفة، وخاصة الفلسفة اليونانية. فهل هذا صحيح؟

---

[5] محمد دراز. الدين ص 33
[6] موسوعة الأديان. موقع الدرر السنية http://dorar.net
[7] محمد دراز. الدين ص 33

يرى الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا بأنه من الإجحاف أن تنسب نشأة الأخلاق إلى المفلسفةاليونانية، خاصة سقراط، ويؤكد أن الفلاسفة السابقين على سقراط ، وما كانوا عليه من اخلاق هي تطور لأخلاق سابقة عليهم، بل ويرى أن الأخلاق كانت موجودة في مرحلة ما قبل التاريخ[8]. ويمضي مؤكداً أن أخلاق الشرق سبقت الأخلاق اليونانية ومهدت لها.[9]

ويضرب لذلك مثالاً تـأثرهم بالحضارة المصرية[10]. ولا نريد أن نطيل النقل عنه في هذا المجال ويكفينا نقل الفكرة الرئيسية في هذا الموضوع.

لقد رافقت الأخلاق والأخلاقية البشر منذ نشأتهم، إذ لا يتصور أن لا يعرف البشر الأخلاق إلا في عصور متأخرة، كما يصور البعض، وكما قال أحد الفيلسوف جون لوك :" إن الله لم يكن يضن على البشرية بهذه الدرجة وذلك بأن يجعلهم مخلوقات من ذوات الرجلين ثم يتركهم لأرسطو كي يجعلهم كائنات عاقلة.."

الدين والأخلاق:

لا يمكن للدين إلا أن يكون مصدراً للأخلاق والأخلاق الحسنة بصفة خاصة، وحتى فلاسفة الغرب الذين نظروا في هذه العلاقة شغلتهم هذه الحقيقة[11]، فلا شيئ غير الدين يمكن أن يرسم طريق الحياة الطبيبة للإنسان في عاجله وآجله.

لقد بحث الفلاسفة ثلاثة اشكال ممكنة للعلاقة بين الأخلاق والدين وهي:

1- <u>تبعية الأخلاق للدين</u>

ومن الفلاسفة الذين قالوا بتبعية الأخلاق للدين: القديس "اوغسطين" والقديس " توماس الاكويني".

ويستندان في ذلك إلى أصلين اثنين هما: " الإيمان بالإلة" و "إرادة الإله"

أ) الإيمان بالإله:

وكان نتيجة لإندراج الفلسفة الموروثة عن اليونان بتعاليم الدين المسيحي، وتقرر التسليم بأنه "لا اخلاق بلا إيمان"[12].

---

[8] مرحبا، محمد عبد الرحمن. المرجع في تاريخ الأخلاق ص 16

[9] مرحبا، محمد عبد الرحمن. المرجع في ناريخ الأخلاق ص 141

[10] مرحبا، محمد عبد الرحمن. المرجع في تاريخ الأخلاق ص 141

[11] طه علد اللاحمنئز سؤال الأخلاق ص 29

[12] طه عبد الرحمن – سؤال الأخلاق ص 31 وما بعدها

ولقد نفر الفلاسفة الذين بقوا على التقليد الفسلفي من هذه الحقيقة، لأن ذاكرتهم تختزن "الإله الأسطوري" في الفكر اليوناني، أو تعدد الآلهة وهو يختلف عمن يؤمن بإله واحد له الخلق والأمر.

ب) إرادة الإله:

إن الفلسفة التي تعتبر بأن الإيمان بالإله أصلاً من أصولها وتبني عليه الفضائل الأخلاقية، لابد أن تؤمن بأن الإله هو صاحب الإرادة الكاملة الحقة، فإدراك الوحدانية شرط في إدراك الإرادة، وبهذا تصبح إرادة الله ملزمة لمخلوقاته فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه ويتجلى ذلك في "الوصايا العشر" التي جاء بها موسى عليه السلام[13].

2- تبعيةالدين للأخلاق

لو أخذنا "كانط" صاحب نظرية الواجب سنجد أنه يؤكد على تأسيس الأخلاق على "الإرادة الخيرة" وهذه الإرادة متجردة من كل اشكال الحظ والغرض، بما في ذلك الثواب والعقاب، وهي إرادة عاقلة بعقل خالص ولا مجال حينئذٍ لتبعية لغيرها، فهي تعمل بمقتضى الواجب لذات الواجب، فهي لا تتلقى الأوامر من غيرها، وهي صاحبة التشريع لنفسها، فهي تلقى الأوامر إلى ذاتها من داخلها[14].

ومع هذا فقد أجاز "كانط" أن تستتبع الأخلاق الدين كما يستبع الأصلُ الفرع، ويرى أيضاً أن العمل على تحقيق الخير يوجب الإيمان بخلود الروح، ووجود الإله، وأنه لا بد من افتراض علة لكل الطبيعة، تسمو عليها وتملك أن يكون بيدها السر والواصل بين الفضيلة والسعادة الا وهو الإله، الا انه جعل الإيمان بخلود الروح ووجود الإله تابعين للأخلاق[15].

يقول الدكتور طه عبد الرحمن في معرض مناقشته لفكرة تبعية الدين للأخلاق والرد على "كانط" أن "كانط" سلك في بناء نظريته الأخلاقية طريقين يوضحان تأثير الدين في الأخلاق.

أما أحدهما فهو طريق المبادلة، حيث أخذ بدل المقولات المعهودة في الأخلاق الدينية مقولات أخلاقية مقابلة لها غير معهودة مثل "العقل" بدل "الإيمان" و "الإرادة الإنسانية" بدل "الإرادة الإلهية" .. وهكذا

والطريق الثاني هو المقايسة، حيث يقدر الأحكام الأخلاقية على مثال الأحكام الدينية، مثل القول بأنه إذا كان هناك أخلاق من تقرير الدين المنزل، فهناك أخلاق من تقرير

---

[13] طه عبد الرحمن – سؤال الأخلاق ص 33

[14] طه عبد الرحمن – سؤال الأخلاق ص 36

[15] طه عبد الرحن – سؤال الأخلاق ص 38

العقل المجرد وكذلك قياس الإنسان بالإله.. وهكذا. ويخلص الفيلسوف المسلم إلى القول بأن "كانط" أقام نظريته الأخلاقية العلمانية على قواعد دينية، وبهذا تبطل تبعية الدين للأخلاق[16].

3- استقلال الأخلاق عن الدين:

يقرر "هيوم" وهو أحد الفلاسفة المشهورين بأنه: "لا نتيجة أخلاقية، يجوز أن تلزم من قضايا خبرية (مثل الوحي)، أو بمعنى أعم لا نتيجة أخلاقية يجوز أن تلزم من قضايا غير أخلاقية ومن هنا فهو يعارض كل تأسيس للأخلاق على أصول خبرية، فهو يدعو إلى استقلال الأخلاق[17].

إن "هيوم" يخرج الأخكام الدينية من الأحكام الأخلاقية حيث أنه يحصر الحكم الديني في الأخبار عن الغيبيات كما أنه يعتبر أن الأحكام الدينية لا تصلح لأن تؤسس الأحكام الأخلاقية، كأن يستنكر قول بعضهم بأن الخير والشر متعلقان بإرادة الإله وان طاعته خير ومعصيته شر.

ويمكن الإعتراض على حصر الدين في دائرة المغيبات بأن هناك قصوراً في تصور مفهوم "الدين" ووضعه في خانة ضيقة، إذ يجعله اشبه بالنظرية بينما حقيقة الدين أشبه بالمؤسسة منه بالنظرية، ومقتضى المؤسسة أن تكون مجموعة أحكام ومعايير تحدد كيفيات العمل من أجل تلبية حاجات معينة، ومن ذلك أن هناك أقوالاً وجوبية تحدد العلاقات بين الموجودات جلباً للمنفعة ودفعاً للمضرة. فالدين بهذا المفهوم أخلاقي بقدر ماهو إخباري، بل إن الخبر في الدين خادماً للأخلاق، ومن هنا يكون حمله على وجه الإيجاب أولى من حمله على وجه الإخبار. فالخبر في الدين لا ينفك عن القيمة الأخلاقية، والخبر الديني ليس خيراً علمياً وإنما هو خبر عملي. فالدين قد أتى لكي يرشد الخلق إلى الطريق الذي ينبغي أن يوجهوا عمل القدرات الإنسانية حتى يستطيعوا أن يحيوا حياة طيبة في العاجل وحياة سعيدة في الآجل[18].

كانت هذه جولة فلسفية اصيلة في نقاش علاقة الدين بالأخلاق استخلصناها من فيلسوف مسلم آصيل لم نجد - فيما اطلعنا عليه – من ناقشها بمثل هذا العمق.

ونضيف هنا عن صلة الأخلاق بالدين حقائق أخرى وهي:

أن الدين بإعتباره معرفة الحق الأعلى وتوقيره، والخلق بإعتباره قوة النزوع إلى فعل الخير وضبط النفس عن الهوى، وان القانون الأخلاقي الكامل الأسمى هو الذي يرسم طريقة المعاملة

---

[16] طه عبد الرحمن – سؤال الأخلاق ص 40

[17] طه عبد ا لرحمن – سؤال الأخلاق ص 420

[18] طه عبد الرحمن – سؤال في الأخلاق ص 42 – 49

الإلهية، كما يرسم طريق المعاملة الإنسانية، وأن الفكرة الدينية تجعل من الألوهية مصدراً العقيدة للتشريع. ويترتب على ذلك أن العقيدة باعتبارها المصدر الرئيسي للإحساس بقدسية القوانين الأخلاقية أكبر دافع يدفع الإنسان إلى الأعمال الإيجابية، وإضافة إلى ذلك فإن التدين مغروز في الفطرة الإنسانية وأن الفكرة الدينية أقوى من الأخلاق المدنية.[19]

يقول الفيلسوف الألماني فيخته:

"إن الأخلاق من غير دين عبث"

مؤكدا أن الأخلاق لم تنشأ إلا في حضن الدين، ويقول الدكتور اليكسيس كاريل:

" إن العقيدة الدينية تجعل للأخلاق فعالية وإيجابية مؤثرة، إذ أن الفكرة المجردة لا تصبح عاملاً فعالاً إلا إذا تضمنت عنصراً دينياً أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد يستحيل معه المقارنة ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية.[20]

وبهذا الرأي قال الفلاسفة المسلمون في الماضي عن فلسفة اليونان بأنها صدرت عن روح ديني عبروا عنها بأن هؤلاء الفلاسفة الأوائل قد نهلوا من "مشكاة النبوة".[21]

ونجد أن كثيراً من الإتجاهات الأخلاقية قديماً وحديثاً يشوبها التفكير الديني.[22] وبالرغم من أن بعض الباحثين يرى بأن الفلسفة تلتقي مع الدين في الغاية وتختلف عنه في المنهج[23]، إلا أن هناك من أوجد فروقاً بينهما (الإسلام تحديداً) تتمثل في الآتي:

1- في المصدر والمنبع: فالعقيدة الإسلامية مصدرها الله، والفسلفة عمل انساني يتحكم فيه كل ما يعتري الإنسان من جهل وهوى.
2- في المنهج والسبيل: فالفلسفة تجعل العلوم الحسنة والبدهية هي الأصل الذي لا يحصل علم إلا بها، أما المنهج القرآني فيبدأ بدعوة الناس إلى التوحيد.
3- في قوة التأثير: فالعقيدة لها سلطان قاهر قوي على نفوس معتنقيها، والفلسفة ليست كذلك.
4- في الأسلوب: فأسلوب الفلسفة مليء بالجفاف والغموض والتعقيد مما يجعل دارسيها يقضون وقتاً كبيراً في فك معضلات مصطلحاتها قبل أن يستطيعوا الدخول في اغوارها. بينما اسلوب العقيدة سهل واضح.

---

[19] مصفطى حلمي – الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص 28-29
[20] مصطفى حلمي – الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الدين ص 30
[21] على سامي النشار – مشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 112
[22] أخمج محمود صبحي – الفسلفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ص 24
[23] توفيق الطويل – الفلسفة الخلفية ص

5- في طريقة الإستدلال: فالقرأن أدلته من الآيات الكونية، وهذا الإستدلال يستلزم العلم بصياغتها من غير احتياج لأقيسة كاقيسة المتكلمين.
أما الإستدلال في الفلسفة فيحمل كثيراً من الشكوك التي تؤدي إلى الحيحرة والقلق، وأحياناً إلى رد الحق.
6- في الجني والعطاء: فجني العقيدة إيمان راسخ وأما جنى الفلسفة فسفسطات عقلية باهتة، لا تزرع إيماناً ولا تورث استقامة.[24]

[24] محمد بن سعيد القحطاني، الإعلام بنقد كتاب نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص 11-13